مع البحث البلاغى

عبر القرون والأجيال

د. عبد الرازق محمد محمود فضل

فطرة الله التى فطر الانسان عليها هى أن يثبت الانسان ذاته فى منحى يروقه ويستهويه من مناحى الحيـــاة ، فانك فى أى زمان ومكان ترى منشئا أنشـــأ مكان ســـكنى له فحـــاول الاجادة فى بنائه وتجميله بكل ما دله عليه فكره وعقله وقلبه من عناصر الجمال يستوى فى ذلك ساكن المدر مع ساكن الوبر كما يستوى فيه الغابرون مع اللاحقين مع المحدثين ، كل يحاول أن يكون صـــاحب اليد الطولى فى البـــاس مســـكنه ثوب الجمال الذى لم يســـبق اليه ، ثم هو بعد اتمامه ناظر اليه بعين الناقد يحدد المزايا ويفصلها عن العيوب كما أنه مستمع الى غيره الذين يفترقون ما بين مادح مقرظ وقادح مفند ، وفى الموقفـــين موقف المادح المقرظ وموقف القادح المفند خير للبناء والمبتنى ، هـــذا يكسب الخبرة التى تجنبه الخطـــأ فيما يستقبل من الأعمـــال ، وذاك يضفى عليه من رواء الأبهة والجلال ما يجعله يتبوأ المكانة التى لم تكن فيما سبقه من أعمال .

وقل مثل هذا فى اختطاط المدن وشق الجـــداول وابتناء القنـــاطر وارتقـــاء المعارف الى غير ذلك مما يدخل تحت نتاج بنى الانسان .

واعتقادنا أن تراث الأمم هو ذات الأمم حتى كأنها هو ، وكأنه هى واذا نظرنا الى(١) اللغة من حيث نسيج بنائها ، وأحوال صوغها ،

---

(١) الاعجاز البلاغى للدكتور محمد محمد أبى موسى ص٣ وما بعدها

وجدنا هذا النسيج وهذه الأحوال ، وهذا النظام فى جوهره طبائع الأقوام وأحوالهم الروحية والنفسية ، وطرائق تصورهم للحقائق وابانتهم عنها أى هى القوم من حيث هم ناطقون .

البلاغة موجودة مع وجود أول عمل أدبى :

واذا قد عرفنا ذلك فلسنا محتاجين الى أن نقرر أن الذى أذاع على الناس طرفا مما تعتمل به نفسه فى صورة قصيدة شعرية أو خطبة أو رسالة أو قصة أو مسرحية او غير ذلك من أجناس الأدب هو موضوع فى ميزان السامعين جميعهم كل يحكم على نتاجه بمقدار فهمه وبمقدار مانتيحه ظروف عصره من معايير وضوابط لا يختص بذلك أمة دون أمة ولا عصر دون عصر آخر ، وأنت واجد فى حياتك أن صاحب كل عمل ما أن ينجز عمله حتى تتوالى عليه أحكام الناس ويقف هو من هذه الأحكام موقف المنتبه لها المنتشى بما فيها من المدح والثناء المدافع عما يثار حولها من العيب والشان المتدارك لمايبصّر به من النقص .

واذا طبقت هذا على البلاغة وهى أساس النقد الأدبى وعموده اذ هى بلوغ المتكلم بالسامع ما يريد اذا طبقت السابق عليها وجدتها موجودة بوجود أول متكلم مبين فهى من حيث كونها متعلقة بالمتكلم المنشىء موجودة لديه من قبل أن ينشىء وهى من حيث تعلقها بالناقد موجودة مع أول عمل أدبى ظهر فى اللغة .

واذا كان مؤرخو الأدب لم يضعوا — على وجه اليقين — بداية لظهور الأدب فانا كذلك لا نستطيع أن نضع بداية للبلاغة سواء كانت بلاغة المنشىء أو بلاغة الناقد .

والعرب عرفوا البلاغة من قبل أن يحدد مدلولها الذى حوته الكتب ووعته العقول والألباب .

ولذلك لما أنكر عامل الماء على الأعرابى سجعه فى قوله : « حلأت ركابى وشققت ثيابى وضربت صحابى » قال فكيف أقول وذاك أنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ(٢) .

وعلى ذلك فالبلاغة مرت فى حياتها العملية والعلمية بأطوار متعاقبة لكل طور منها مميزاته وخصائصه .

الطور الأول : طور الذوق المبنى على الاستحسان أو الاستهجان وهذا الطور يكتنف العصر الجاهلى والاسلامى والأموى .

الطور الثانى : طور التدوين غير المستقل حيث تبحث فيه البلاغة بحثا متداخلا مع علوم أخرى كالنحو وعلم الكلام وعلم اللغة وهذا العصر يكتنف البلاغة فى عصر العباسيين وما يليه حتى ظهور مدرسة السكاكى .

الطور الثالث : طور التدوين المستقل وهذا الطور يكتنف البلاغة من لدن السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ حتى ظهور العصر الحديث حيث قضت سنة الحياة الاختلاط بالغرب الأوربى الذى بهر بهرجه عيون كثير من الناس فخلعوا عن أنفسهم ما ابسوه من حلل العربية الفضفاضة واندسوا فى زى غيرهم يحاولون أن يلفتوا اليهم الأنظار ويستهوا العواطف والألباب .

---

(٢) أسرار البلاغة تحقيق السيد رشيد رضا ص ٨ ، والركاب بالكسر المطى واحدتها راحلة من غير لفظها ، وأما الركوبة بالفتح فهى الناقة تركب كذا فى أصل اللغة ثم استعيرت لكل ما يركب وحلأت الركاب بالتخفيف والتشديد منعتها ورود الماء .

ونحن فى بحثنا هذا سنلقى الضوء على الطورين الأولين تاركين الثالث لسببين :

الأول : أن مدرسة السكاكى ومن بعده الخطيب القزوينى حظيت بالشروح والحواشى والتعليقات والتقريرات بما يجعل الحديث عنها لا غناء فيه .

الثانى : أن ما كان من المستغربين يحتاج الى جهد متأن مناقش موازن وهذا ما نعد — باذن الله — بالتصدى له فى بحث نرجو الله أن يهيىء له من أسباب النجاح ما يجعله جديرا بالصدور فى كتاب .

الطور الأول : طور الذوق المبنى على الاستحسان أو الاستهجان :

كانت البلاغة فى هذا الطور — الذى يكتنف العصر الجاهلى والعصر الاسلامى والعصر الأموى — ملاحظات فردية غير مدونة ، لأن البلاغة لم تحتج فى هذا الطور الى التدوين ، ولذلك لم يثر حول القرآن وبيان القرآن وصور التشبيه والمجاز فى القرآن شىء اطلاقا فى هذا الطور وانما بدأت الاثارات فى القرن الثانى الهجرى .

ولذلك روى الامام الشافعى فى كتابه الفقه الأكبر وهو كتاب يتعلق بمسائل العقائد عن الامام مالك فى حديثه عن الصور التشبيهية الواردة فى القرآن الكريم حول ذات الله — سبحانه وتعالى — قوله :

« سئل الامام مالك عن قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى »(٣) فأجاب :

---

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

« الاستواء مذكور (٤) والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة ولا أراك الا مبتدعا ولئن عدت الى مقالتك لأقطعن رقبتك » .

فالبلاغة فى هذا الطور غير مقعدة ولا مبوبة ولا مدونة لأنها صور معبرة تلاحظ اللغة والمتكلم والسامع والغرض من غير أن تكون تلك المراعاة ناشئة عن تعليم أو تقييد أو قراءة فى كتاب .

وقد كثرت الأعمال النقدية البلاغية فى هذا الطور كثرة عظيمة يدلك على ذلك قول حازم القرطاجنى صاحب كاب منهاج البلغاء .

« ولقد نقل الرواة من نقدهم الشىء الكثير لكنه مفرق فى الكتب ولو تتبعه متتبع متمكن من الكتب الواقع فيها لاستخرج منه علما كثيرا موافقا للقوانين التى وضعها البلغاء فى هذه الصناعة »(٥) .

وهذه نماذج لأعمال نقدية بلاغية تبين مميزات البلاغة فى هذا الطور :

١ — يروى عن طرفة بن العبد أنه لاحظ على المتلمس أو المسيب ابن علس أنه وصف فى شعره البعير بوصف خاص بالناقة حيث قال :

وقد أتناسى الهم عند ادكاره

بناج عليه الصيعرية مكدم(٦)

---

(٤) الرواية الدارجة على الألسنة الاستواء معلوم وهذه الرواية التى معنا أولى بالقبول اذ كيف يتقابل العلم مع الجهل ولأن الامام الشافعى خير من يروى عن الامام مالك لأنه عاصره وسمع منه وتتلمذ عليه .

(٥) منهاج البلغاء لحازم القرطاجنى ص ٢٦ .

(٦) ادكاره بمعنى تذكره ، والصيعرية من أدوات النوق خاصة .

فقال طرفة « استنوق الجمل » وذلك لأن الصيعرية مما يستعمل مع النوق وليس مع الجمـــال ، ولا يخفى من النقد هنـــا راجع الى المعنى وصوابه •

٢ ــ قدم النابغة الذبيانى يثرب « المدينة المنورة » والنابغة هو من هو فقد كانت تضرب له قبة فى سوق عكاظ ليحكم بين الشـــعراء وقد كان الشعراء يرضون حكم ويذعنون لما يراه فما حسّنه فهو حسن وما فضل عليه غيره فهو مفضول غير منازع فى ذلك •

أقول قدم النابغة يثرب وأنشد :

أمن آل أميـــة رائح أو مغتـــد
عجـــــلان ذا زاد وغـــير مزود

زعم البوارح أن رحلتنـــا غدا
وبذاك خبرنا الغراب الأســـود

وقال أيضـــا :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه
فتنـــاولته واتقتـــنا باليـــد

بمخضـــب رخص كأن بنـــــانه
عنم يكاد من اللطـــــافة يعقد

فعاب عليه أهل يثرب اقواءه فى ثانى الأولين وثانى الأخيرين ولما سمع عيبهم لم يأبه بقولهم فاحتالوا فى اقناعه ولم يستسلموا لاهماله وذلك أنهم أسمعوه الأبيات فى غناء جارية ــ ولاشك أن أهل القرى ألطف نظرا من أهل البداوة ــ وقالوا للجارية اذا صرت الى القافية فرتلى فلما قالت « الغراب الأسود » ويعقد وباليد علم فانتبه فلم يعد

فيه وقال « قدمت الحجاز وفى شعرى ضعة ورحلت عنها وأنا أشعر الناس »(٧) •

والنقد هنا راجع الى الوزن وانسجامه اذ ان حـرف الروى فى مطلع القصيدة مكسور « غير مـزود » وفى البيت الثانى مضـموم « الغراب الأسود » وكذلك فى « باليد » مكسور وفى قوله« يعقد » مضـموم •

٣ ــ يقال ان النـابغة الذبيانى ــ قاضى عكاظ الذى لا تدفـع حكومته « فضل الأعشى على حسان بن ثابت ، وفضل الخنسـاء على بنات جنسها وثار حسان عليه وقال له « أنا أشعر منك ومنها ، فقال له النابغة حيث تقول ماذا ؟

قال حيث أقول :

لنا الجفنـات الغر يلمعن بالضـحى
وأسـيافنا يقطرن من نجـدة دما

ولدنا بنى العنقـاء وابنى محـرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنمـا

فقال النابغة :

« انك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك وفى رواية أخرى قال له النابغة انك قلت الجفنـات فقللت العدد ولو قلت الجفان اكان أكثر ، وقلت « يلمعن فى الضـحى ولو قلت يبرقن بالدجى اكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا وقلت : يقطـرن من نجدة دما فدللت على قلة القتل ، ولو قلت

(٧) الموشح ص ٣٨ ، ٣٩ والاقواء هو اختلاف حركة الروى •

يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ... فقام حسان منكسرا منقطعا »(٨) .

ومن البين الواضح أن النقد البلاغى هنا مبنى على أن الشاعر لم يراع المقام وما يقتضيه فهو فى مقام مفاخرة ، ومقامها يقتضى المبالغة .

وربما ثار — هنا — سؤال .

ألم يتجه تقويم قدماء العرب شعر شعرائهم الى القصيدة بتمامها واقتصر على هذه اللمع التى ذكرتها من تقويم البيت أو البيتين فقط ؟

وأجيب على الفور : أنا لم نقف على نقد قديم لقصيدة بأكملها . وما أظن ذلك راجعا الى تقصير منهم وانما هو راجع الى أن التدوين لم يكن قارا لدى العرب القدماء وكان اعتمادهم على الذاكرة التى استطاعت أن تحفظ الشعر لما فيه من عناصر تعين على الحفظ ، ولم تستطع حفظ ما قالوه تفصيلا فى نقد قصيدة بتمامها .

ودليلنا على ذلك أنهم تخيروا أفضل ما قيل من قصائد بجمع غير قلة من الشعراء فجعلوه موضع تعلقهم وحبهم واهتمامهم وتكريمهم، والا فما المعلقات ؟ ومن الأدلة كذلك على أن النقد الجاهلى اتجه الى القصيدة بتمامها ما تذكره الكتب من أن قريشا كان لها الحكم الذى لا يرد .

ففى الأغانى « أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه كان مردودا ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمى ، فأنشدهم قصيدته (هل ما علمت وما

---

(٨) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ط دار الكتب ج ٩ ص ٣٤٠ .

استودعت مكتوم) فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العـــام القابل فأنشدهم قصيدته « طحا بك قلب فى الحسان طروب » فقالوا: هاتان سمطا الدهر • فالاستحســـان فى خبر علقمة هنا راجـــع الى القصيدة بتمامها وليس الى بيت أو بيتين فقط •

ومن الدليل على أن العـــرب الأولين كانت اتجـــاهاتهم النقـــدية تشمل القصيدة بتمامها ما نعرفه من ــ أن زهير بن أبى ســـلمى كان ينظم القصيدة فى شهر وينقحها ويهذبها فى سنة »(٩) ولذلك ســـمى بشاعر الحوليات •

بل انهم لم يقتصروا فى نقدهم البلاغى للشاعر على القصيدة فقط بل تعدوا ذلك الى نتاج الشـــاعر كله ، والى الموازنة بين شـــاعرين أو أكثر وان أردت التثبت من هذا فراجع كتاب الموشـــح للمرزبانى تجد فيه أن ربيعة بن حذار الأسدى قام قاضيا أدبيا نقديا بين أربعة من الشعراء هم الزبرقان بن بدر والمخبل السعدى ، وعبدة بن الطيب، وعمرو بن الأهتم وأصدر حكمه فقال :

الزبرقان شعره كلحم لم ينضج فيـــؤكل ، ولا ترك نيئا فينتفع به والمخبل شعره شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده وعبدة شعره كمزادة أحكم خرزها فلم يقطر منها شىء وعمرو شعره برود يمانية تطوى وتنشر »(١٠) •

ولا يفوتنا فى الاستدلال لتناول قدماء العرب بالنقد نتاج الشاعر كله أن نذكر أنهم لقبوا شـــعراءهم ألقابا انتزعوها من وصف شـــعر

---

(٩) نظرات فى البلاغة والاسناد للمرحوم الدكتور محمد عبد الرحمن الكردى ص ١٠ •

(١٠) الموشح للمرزبانى ص ٧٥ •

هـؤلاء الشعراء كالمهلهل ، والمرقش ، والمثقب والمنخـل والمتنخـل والأفوه والنابغة .

وليس بخاف أن هذه الألقاب جيء بها نتيجة للسمة العامة الغالبة على شعر كل واحد من هؤلاء الشعراء ، وبذلك يتبين أن النقد البلاغى فى العصر الجاهلى كان موجودا وكان كثـيرا وأنه تناول الجـوانب المختلفة للنقـد البلاغى ما كان منها متعلقـا باللغـة وما كان منهـا متعلقا بالمقام وما يقتضيه ، وما كان منها قائما على مدى صدق الشاعر الفنى فى التعبير عن نفسـه الى غير ذلك من الجوانب ، وأن مرد عدم وقوعنا على أشياء كثيرة أثرت عنهم فى هـذا الميدان هو عدم التدوين كما ذكرت سابقا .

واذا تركت عصر الجاهليين الى عصر صـدر الاسـلام طالعك من الأعمال النقدية الذوقية التى تستند الى الملكة البلاغية الفطـرية الشيء الكثير .

يتذوقون الكلام ويعطونه حقه من الاستحسان أو ضـده من غير أن تكون لديهم قوانين موضوعة اللهم الا ما يراه الذوق والاحساس والفطرة ، هذا لبيد الشـاعر المشهود لشـعره يدخل الاسلام ويقرأ القرآن فيقف مبهورا أمام البلاغة القرآنية المعجـزة ، لذلك يضرب صفحا عن قرض الشعر ويكتفى بعد قراءة القرآن الكريم بانشاء بيت واحد هو قوله :

الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من القرآن سربالا

وقال له أمـير المؤمنين عمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنشدنى من شعرك فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعرا بعد اذ علمنى الله البقرة(١١) .

---

(١١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥١ .

انبهر لبيد بالبلاغة القرآنية المعجزة فكف عن قول الشعر .

ولقد كان للقرآن الكريم أثر بالغ فى ارساء دعائم نقدية ذوقية جديدة منها التدقيق فى استعمال الكلمات واختيار ما يناسب منها المقام نفهم ذلك من قوله تعالى فى سورة البقرة على سبيل المثال :

« واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين »(١٢) .

وقوله فى سورة الأعراف فى القصة نفسها :

« واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيآتكم سنزيد المحسنين »(١٣)

فاستعمل فى سورة البقرة « واذا قلنا » بينما استعمل فى سورة الأعراف « واذ قيل » .

كما استعمل فى سورة البقرة « ادخلوا » وفى الأعراف «اسكنوا» وعطف الأكل على الدخول بالفاء فى البقرة بينما عطفه على السكون فى الأعراف بالواو ، واثبت فى آية البقرة قوله « رغدا » بينما لم يأت به فى آية الأعراف ، وقدم فى آية البقرة دخول الباب على السجود بينما أخره عنه فى آية الأعراف .

وقال فى البقرة « خطاياكم » وفى الأعراف قال « خطيآتكم » وأتى بالواو فى آية البقرة فقال « وسنزيد المحسنين » بينما لم يأت بها فى آية الأعراف فقال « سنزيد المحسنين » .

---

(١٢) الآية ٥٨ من سورة البقرة .
(١٣) الآية ١٦١ من سورة الأعراف .

ولكل هذه المخالفة الاستعمالية نكتة بلاغية تستطيع الوقوف عليها فى مظانها من كتب التفسير(١٤) ٠

وعلى هدى القرآن الكريم سار رسول الله — ﷺ — فى كلامه فكان قوله — ﷺ — اذا ووزن بينه وبين قول غيره أعم نفعا وأقصد لفظا وأعدل وزنا وأجمل مذهبا وأكرم مطلبا وأحسن موقعا وأسهل مخرجا وأفصح معنى وأبين فحوى »(١٥) ٠

كما أرشد ﷺ الناس الى التدقيق فى اختيار الألفاظ الملائمة فقال « لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ولكن ليقل لقست نفسى « كراهة أن يضيف المسلم الخبث الى نفسه »(١٦) ٠

ومن آيات ملكته الذوقية — ﷺ — أنه قدم حسان بن ثابت على غيره من شعراء الاسلام ، كما منح كعب بن زهير بردته لجودة قصيدته التى قالها فى الاعتذار لرسول الله — ﷺ — ومدحه ومدح الاسلام والصحابة والتى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكبول

وفيها يقول :

ان الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وبيّن ﷺ لقتيلة بنت النضر بن الحارث أنه لو سمع بيتها الذى تقول فيه :

---

(١٤) راجع فى ذلك تفسير الكشاف للزمخشرى ج ١ ص ٢٨٣ ، وج ٢ ص ١٢٥ ٠

(١٥) راجع البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٢ ٠

(١٦) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٣٣٥ ٠

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

قبل أن يهلك أبوها لعفا عنه ، وقد كان النضر عدوا للاسلام والمسلمين ومات صبرا عندما وقع فى أيدى المسلمين .

ومما يروى فى ارتياحه — ﷺ — للشعر واستحسانه له ما حدث به النابغة الجعدى(١٧) قال أنشدت رسول — ﷺ — قولى :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال النبى — ﷺ — أين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقلت الجنة يا رسول الله قال أجل ان شاء الله ثم قال أنشدته قولى :

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل اذا لم يكن له حليم اذا ما أورد الأمر صدرا

فقال : — ﷺ — : « أجدت لا يفضض الله فاك »(١٨) .

قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد « فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفض له ثنية » .

ولعل من أقوى الأدلة على وجود الملكة الذوقية النقدية البلاغية للعرب فى صدر الاسلام ما روى أن الوليد بن المغيرة أحد خصوم رسول الله — ﷺ — الألداء استمع اليه وهو يتلو بعض آى القرآن فقال : « والله لقد سمعت من محمد كلاما ، ما هو من كلام الانس ولا

---

(١٧) هو عبد الله بن قيس بن جعدة كان معمرا فقد نادم المنذر أبا النعمان بن المنذر وهو أقدم من النابغة الذبيانى ، عاش حتى أدرك الأخطل وتنازعا الشعر فغلبه الأخطل ، مات بأصفهان وهو ابن عشرين ومائة سنة . عن الشيخ رشيد رضا فى تعليقه على كتاب دلائل الاعجاز .

(١٨) دلائل الاعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجانى ص ٣٦ .

من كلام الجن ، وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق »(١٩) •

وكذلك ما روى أن أبا جهل وأبا سفيان بن حرب والأخنس بن شريق ذهبوا يسترقون السمع من رسول الله — ﷺ — فى جنح الظلام ولما انصرفوا صمموا على عدم العود • فلم يستطيعوا تنفيذ ما صمموا عليه وعادوا متفرقين مستترين كل يعمل حيلته فى اخفاء نفسه ولما افتضح أمرهم بينهم تعاهدوا على عدم العود الى هذا الصنيع •

ما دفعهم الى ذلك الا استلذاذ طباعهم للقرآن الكريم(٢٠) •

وبهذا يتبين لك أن عصر صدر الاسلام حفل بالنظرات النقدية البلاغية ورقى فيه الذوق والحس الأدبى بفضل عاملين أساسيين هما :

(أ) بلاغة القرآن الكريم ، الذى كانت آياته تتلى آناء الليل وأطراف النهار •

(ب) بلاغة رسول الله — ﷺ — الذى كان حديثه يذيع على كل لسان ، وكانت خطبه — ﷺ — ملء الصدور والقلوب(٢١) وفيه يقول الجاحظ انه : « لم ينطق الا عن ميراث حكمة ولم يتكلم الا بكلام قد حف بالعصمة ••• وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الأفهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته »(٢٢) •

---

(١٩) راجع تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ٤ ص ١٨٣ •
(٢٠) راجع سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ •
(٢١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣ •
(٢٢) البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٧ •

هذا وقد كان لصحابة رسول ــ ﷺ ــ لمع نقدية ذوقية رائعة منها ما يروى عن أبى بكر أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله » وتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ ، اذ قد يظن أن النفى مسلط على الدعاء ، فقال له : «قد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا وعافاك الله »(٢٣) .

ومن اللمع النقـدية الرائعة لأمير المؤمنـين عمر بن الخطـاب ــ رضى الله عنه ــ ما يرويه قدامة بن جعفر فى كتابه نقد الشعر من أنه قال فى مدح زهير بن أبى سلمى : « كان لا يتبع حوشى الكلام ، وكان لا يعاظل بين الكلام » ، وذكر قدامة بن جعفر أن معنى «لا يتبع حوشى الكلام » يتجنب الألفاظ الملحونة غير الجارية على سبيل اللغة والاعراب ، والألفاظ قليلة الاستعمال والشاذ .

وفسر المعاظلة بين الكـلام بأنها ــ ادخال بعض الكلام فيمـا ليس من جنسه(٢٤) .

وأما أمير المؤمنين على فكان لا يجارى بلاغة وحكمة وما كتـاب نهج البلاغة للامام على ببعيد .

عصر بنى أمية :

عصر بنى أميـة عصر ازدهرت فيه الخطـابة بجميع أنواعهـا ازدهارا عظيما وقد بلغ زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفى فى هذا الفن مبلغا عظيما .

قال الشعبى فى زياد :

---

(٢٣) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٢٦١ .

(٢٤) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ص ١٩٦،٢٦

« ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن الا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء الا زيادا فانه كلما أكثر كان أجود كلاما »(٢٥) •

وقال مالك بن دينار فى الحجاج :

« ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم فيقع فى نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج »(٢٦) •

ومن اللقطات النقدية البلاغية للحجاج ما يروى أن الحجاج قال لرجل فصيح : كيف تركت الناس وراءك فقال : « تركتهم أصلح الله الأمير حين تفرقوا فى الغيطان ، وأخمدوا النيران ، وتشكت النساء ، وعرض الشاء ، ومات الكلب » •

فقال الحجاج لجلسائه : « أخصبا نعت أم جدبا ؟ قالوا بل جدبا • قال : بل خصبا • قوله تفرقوا فى الغيطان معناه أنها أعشبت فابلهم وغنمهم ترعى • وأخمدوا النيران معناها استغنوا باللبن عن أن يشتووا لحوم ابلهم وغنمهم ويأكلوها •

وتشكت النساء أعضادهن من كثرة ما يمخضن الألبان • وعرض الشاء استن من كثرة العشب والمرعى »(٢٧) •

ومن المواقف النقدية المبنية على الاستحسان البلاغى فى دولة بنى أمية ما يروى من أن ابن أبى ربيعة ، وكثير عزة ، وجميل بثينة

---

(٢٥) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٦٥ •
(٢٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٩٤ •
(٢٧) ذيل الأمالى لأبى على القالى ط دار الآفاق ص ٨٥ •

اجتمعوا بباب عبد الملك بن مروان فأذن لهم فدخلوا فقال أنشدونى أرق ما قلتم فى الغوانى فأنشده جميل بن معمر قوله :

حلفت يمينا يا بثينة صادقا
فان كنت فيها كاذبا فعميت

اذا كان جلد غير جلدك مسنى
وباشرنى دون الشعار شريت

لو أن راقى الموت يرقى جنازتى
بمنطقها فى الناطقين حييت

وأنشد كثير عزة قوله :

بأبى وأمى أنت من مظلومة
طبن العدو لها فغير حالها
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى
فى الحسن عند موفق لقضى لها
وسعى الى بصرم عزة نسوة
جعل المليك خدودهن نعالها

وأنشد ابن أبى ربيعة المخزومى :

ألا ليت قبرى يوم تقضى منيتى
بتلك التى من بين عينيك والفم
وليت طهورى كان ريقك كله
وليت حنوطى من مشاشك والدم
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتى
هنا أو هنا فى جنة أو جهنم

فقال عبد الملك لحاجبه :

أعط كل واحد منهم ألفين وأعط صاحب جهنم عشرة آلاف(٢٨) .

وخلاصة القول أن عصر بنى أميـــة ازدهرت فيه البلاغة الذوقية وتناولت كثيرا من فنون البلاغة التى أصلت فيما بعد .

تناولت المعنى وانسجامه ويبدو ذلك واضحا فيما قاله عبد الملك ابن مروان لعبد الله بن قيس الرقيات لما أنشده قصيدته التى فيها :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

قال عبد الملك قد قلت فى مصعب بن الزبير :

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم ، وأعطيتنى من المدح ما لا فخر فيه وهو اعتـــدال التـــاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة(٢٩) .

كما تناولت ما يمكن أن نسميه المناسبة والنظم ومراعاة النظـــير يتضح ذلك من الخبر الآتى :

« اجتمع النصيب والكميت وذو الرمة فأنشدهما الكميت قصيدته: « هل أنت عن طلب الايقاع منقلب » حتى اذا بلغ منها الى قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة وان تكامل فيها الأنس والشنب(٣٠)

---

(٢٨) ذيل الأمالى لأبى على القالى ط دار الأفاق ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢٩) الصناعتين لأبى هلال ص ٩٨ .

(٣٠) الشنب وصف للأسنان الجميلة وواضح أنه لا مناسبة بين الأنس وجمال الأسنان .

عقد نصيب واحدة ، فقال له الكميت : ماذا تحصى؟قال خطأك باعـدت فى القـول ما الأنس من الشـنب ؟ ! ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أسنانها شنب(٣١)

فانكسر الكميت(٣٢) ...

ومن النقد البلاغى فى عصر بنى أمية ما كان قائما على الصورة التشبيهية من ذلك ما يروى أن جريرا سمع عمر بن لجأ التيمى ينشد فى أرجوزة له يصف ابله :

قد وردت قبل انى ضحائها وتفرس الحيات فى خرشائها(٣٣)

جر العجـوز الثنى من ردائها

فقال جرير : كان أولى بك أن تقول جر العروس لا جر العجوز التى تتساقط خورا وضعفا(٣٤) .

ولعل من الطريف أن نجد فكرة وحدة السياق تمر على ألسنتهم، فقد ذكر الرواة أن عمر بن لجأ قال لبعض الشعراء : أنا أشـعر منك ، قال : وبم ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه(٣٥) .

---

(٣١) لمياء صاحبة شفة سمراء جميلة ، والحو حمرة فى الشـفتين تميل الى السواد ، واللعس كذلك .

(٣٢) الأغانى جـ ١ ص ٣٤٨ .

(٣٣) انى وقت . ضحائها : المرعى ضحى . تفرس : تدوس وتصعق والخرشاء : جلد الحيات .

(٣٤) الأغانى جـ ٨ ص ٧٠ .

(٣٥) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص ١٨ .

الطور الثانى : طـــور التدوين غير المستقل

هذا العصر يكتنف دولة العباسيين الأولى والثانية ويستمر حتى ظهور السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ •

مازال الذوق الأدبى والحسى البلاغى هما عمدة البلاغة فى هذا العصر ولكنا نستطيع أن نشتم ريح التحديد فى هذا العصر •

ومن أدلة أن الذوق هو العمدة وأن ريح التحديد بدأت تنتشر فى هذا العصر ما تعلمه من أن الأدب شعره ونثره قد تطور فى هذا العصر تطورا يماشى تطور الحياة العقلية والحضارية •

اطلع على آثار ابن المقفع ــ الذى هو رائد الاسلوب العباسى الجديد الذى سمى باسم الاسلوب المولد ــ تجد الصناعة والدقة فى اختيار الألفاظ ووضعها الموضع الذى تكون فيه غير قلقه ولا نابيـــة وتجد المعانى تنسال انسيالا دون عوج و تعقيد • مما يدل عـــلى أنه كان يصـــدر فى كتابته عن ذوق وحس بلاغيين ، ومع ذلك تجده عندما سـئل عن البـــلاغة أجاب اجابة فيهـــا كثير من التحديد والتقنـــين حيث قال :

« البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الاشارة ومنها ما يكون فى الاحتجاج ومنها ما يكون جوابا ، ومنهـــا ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل(١) •

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١١٥ • وراجع كذلك البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص ٢٠ •

ومن الأدلة ــ أيضا ــ ما رواه الجاحظ من أن ثمامة بن أشرس سأل جعفر بن يحيى البرمكى الوزير الأديب ما البيان ؟ فأجابه بقوله:

« هو أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك وتخرجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، والذى لابد منه أن يكون ، سليما من التكلف بعيدا من الصنعة بريئا من التعقيد غنيا عن التأويل »(٢) •

فأنت ترى فى جواب جعفر تحديدا لمعنى البيان يمكن أن يحفظ ويستظهر فاذا ما سألت نفسك هل كان جعفر فى البلاغة واقفا عند هذا الحد وكفى ؟ وجدت الجواب على الفور بالنفى •

فان التحديد الذى تطالعه فى الفقرة السابقة انما هو مستنبط من بلاغة ذوقية نابعة من احساس صادق نطق بها لسانه وجرى بها قلمه وتعودها الناس منه ويكفى أن تقرأ ما كتبه الناس عن بلاغة هذا الرجل •

يقول ثمامة بن أشرس « كان جعفر بن يحيى أنطق الناس،قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وافهاما يغنيه عن الاعادة ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الاشارة لاستغنى جعفر عن الاشارة كما استغنى عن الاعادة » •

وظنى الذى يكاد يرقى الى اليقين أن الذى جعل التحديد يأخذ طريقه فى الظهور وبخاصة من هؤلاء البلغاء بالطبع أنهم أحسوا بعيب فتور الطبع اللغوى يسرى الى العقول نتيجة الاختلاط بالأجناس والثقافات المختلفة وليس أدل على ذلك من أن الشعراء المجيدين أمثال

---

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠٦ •

بشار وأبى نواس راحوا الى البـــادية كى يأخذوا اللغة ممن فطـــروا عليها »(٣) •

ومن لم يذهب الى البادية لزم اللغويين فى المساجد ، وقد كان ذلك ســـببا فى ظهور المولدين الذين واعموا بين القديم وما عاشـــوا فيه من حضـــارة ورقى عقلى وفنى • ومن الطبعى أن مثل هذه الحالة تقتضى التحديد والتمييز ووضع الضوابط •

واذا تركنا هذه النماذج وانتقلنا الى الشـــعر والشعراء فى ذلك العصر •• وجدنا الشعراء طائفتين :

ـــ طائفة ترى أن أسلوب الشعر ينبغى أن يســـهل حتى يفهمه الناس جميعهم عامتهم وخاصـــتهم • وقد نادى بهذا شـــعراء الزهد وعلى رأسهم أبو العتاهية الذى كان يقول : « الصـــواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس مثل شعرى(٤) •

ـــ وطائفة ترى عكس ذلك تماما وتحتم أن يكون الشعر جزلا فخما ضخما قويا وفارس هؤلاء مسلم بن الوليد الذى أعطى المحسنات اهتماما كبيرا وأطلق عليها اسم البديع ، وتبعه فى ذلك أبو تمام(٥) •

وهذا كله يؤكد أن الذوق كان السمة الغالبة وأن التحديد بدأ يطل برأسه فقط من غير أن يكون هو بؤرة الدائرة •

---

(٣) راجع الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ ٣ ص ١٤٩ ، وأخبار أبى نواس ص ١٢ •

(٤) الأغانى جـ ٤ ص ٧٠ •

(٥) راجع كتاب البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص ٢٧ وما بعدها •

وبهذا سار التاريخ بالبلاغة شيئا فشيئا نحو التقييد والتحديد ومازال بها حتى أضحت مسائل مستقلة وقضايا قائمة بذاتها فى درج كتب اللغة والأدب وتفسير القرآن الكريم • فهذا سيبويه يذكر فى مؤلفه النحوى الكتاب — وهو يتحدث عن الفاعل والمفعول — مسألة التقديم لكنه يتحدث عنها حديثا مجملا غير مفصل ولا مسهب فيقول « كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى ، وان كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم ، ولم يذكر لذلك مثالا »(٦) •

وهذا استعراض تاريخى للبلاغة فى كتب جامعة :

— كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٨هـ :

أبو عبيدة عالم نحوى لغوى تفسيرى بلاغى لا يكاد متحدث فى نشأة البلاغة يغفل ذكر اسمه ذلك أنه أول من بدأ يعالج فى تضاعيف تفسيره للقرآن الكريم مسائل بلاغية بعينها وقد شهد له بالفضل كثير من العلماء المشاهير •

وكتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة كتاب تفسير ونحو وان شئت فقل وبلاغة وسبب تأليف الرجل هذا الكتاب يقصه هو فيذكر أن الفضل بن الربيع وزير الرشيد بعث اليه مالا جزيلا وطلب منه الحضور الى بغداد ، فلما كان فى مجلس الفضل سأله الانشاد فأنشد ماسر الوزير وأضحكه ، وبينما هو فى مجلس الوزير دخل ابراهيم ابن اسماعيل الكاتب — وكان هذا الرجل صاحب حظوة عند الوزير فأجلسه بجانبه — ثم حدثه عن أبى عبيدة وعرفه به قائلا : « هذا أبو عبيدة : علامة أهل البصرة أقدمناه لنفيد من علمه » فقرظ ابراهيم فعل الوزير ودعا له ثم اتجه الى أبى عبيدة وقال له : انى كنت اليك مشتاقا وقد

---

(٦) راجع دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٨٣ •

سئلت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك اياها • قال له أبو عبيدة : هاتها • قال : قال الله عز وجل : « انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين »(٧) وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف • فقال أبو عبيدة : انما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به •

يقول أبو عبيدة : فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا فى مثل هذا وأشباهه وما يحتاج اليه من علمه فلما رجعت البصرة عملت كتابى هذا الذى أسميته مجاز القرآن(٨) •

وواضح مما سبق أن الدافع الى تأليف الكتاب هو تفسير كتاب الله — سبحانه وتعالى — وأن السؤال الذى فتح أمام الرجل باب تأليف الكتاب كان سؤالا هو بالدرجة الأولى بلاغى ومع ذلك فانك لا تستطيع أن تقول : ان هذا الكتاب كتاب بلاغة متخصصة ، ذلك لأنه لم يعمد الى البلاغة أولا وبالذات يبحثها فى هذا الكتاب ، وانما هى شذرات متفرقة متداخلة مع مسائل نحوية وتفسيرية وأدبية ، وجميع هذه المسائل تدرس لهدف أسمى هو خدمة كتاب الله — سبحانه — وتيسير فهمه وفهم بعض أسراره على أذهان الناس •• يستعين

---

(٧) الآيتان ٦٤ ، ٦٥ من سورة الصافات •

(٨) راجع فى ذلك معجم الأدباء ج ٧ ص ١٦٧ ونزهة الألباب ١٤٢ ، ١٤٣ •

على توضيح المعنى وتقريب فهمه الى الأذهان بالاستشهاد بالشعر. وان أردت قولا فصلا فيما تضمنه هذا الكتاب من البلاغة فاعمد الى عنوانه تجده مجاز القرآن .

فلفظ المجاز لم يستعمله العرب قبل أبى عبيدة فهو أول من استعمله ، ومما ينبغى أن تكون منه على ذكر أن كلمة مجاز عند أبى عبيدة ليست هى الكلمة الدالة على استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلى ، وليست تعنى اسناد الفعل أو معناه الى غير ما هو له بتأول ، بل هى تعنى تفسير الآية وتأويلها أو ما يعبر به عن الآية .

ارجع الى كتاب الايمان لابن تيمية تجده يقول : « أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الاية »(٩) .

كما استعمل أبو عبيدة لفظ الكناية غير مريد به المعنى الاصطلاحى للكناية ، وانما يعبر به عن الضمير ، وعن الانتقال بالكلام من حالة الخطاب الى الغيبة وهذا ما عرف بعد ذلك بالالتفات كما أنه يستعمل المجاز أحيانا فى معناه الذى عرف به بعد ذلك ، كما يستعمل الكناية أيضا فى معناها الذى عرفت به بعد ذلك أحيانا أخرى . وهاك ما جاء فى فاتحة كتاب مجاز القرآن : قال الله — عز وجل — « ان علينا جمعه وقرآنه » مجازه(١٠) تأليف بعضه الى بعض ، ثم قال : « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » مجازه فاذا ألفنا منه شيئا فضممناه اليك فخذ به واعمل به وضمه اليك(١١) .

---

(٩) الايمان لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٣٥ .

(١٠) لاحظ أن المراد بكلمة مجازه هو تفسيره .

(١١) راجع البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف .

وهاك مثالا ثانيا يوضح طريق أبى عبيدة فى استعمال كلمة مجاز والاستشهاد لتفسير القرآن الكريم بالشعر العربى • قال فى تفسير قوله تعالى : « فليستجيبوا لى » مجازه يجيبونى • قال كعب الغنوى:

وداع دعا يا من يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أى فلم يجبه عند ذاك مجيب ، فأنت تراه يستعمل كلمة «مجازه» بمعنى تفسيره ويستشهد لصحة تفسيره ببيت طفيل الغنوى •

وهاك مثالا ثالثا يوضح لك أنه يستعمل لفظ الكناية بمعنى الضمير النحوى • قال فى تفسير قوله تعالى : « اياك نعبد » الضمير «اياك» كناية المفعول أى ضمير المفعول ، وفى استعمال الكناية بمعنى الانتقال من الخطاب الى الغيبة يقول فى تفسير قوله تعالى : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة » انه رجوع من المخاطبة الى الكناية والعرب تفعل ذلك كما قال النابغة الذبيانى :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

فقال يا دار مية ثم قال أقوت ، وقد تنتقل من الكناية الى المخاطبة كما فى قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم » مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين » •

وفى استعمال الكناية بمعناها الذى عرف بعد ذلك يقول أبو عبيدة فى تفسير قوله تعالى : « وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا » أو جاء أحد منكم من الغائط كناية عن اظهار لفظ قضاء الحاجة فى البطن •

وفى استعمال كلمة المجاز فيما عرف بعد ذلك بالمجاز الاصطلاحى يقول أبو عبيدة فى تفسير قوله تعالى : « وأرسلنا السماء عليهم

مدرارا » مجاز السماء هنا المطر ، يقال مازلنا فى سماء أى مطر •

وفى قوله تعالى : « وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » • يقول : هو من مجاز ما يحول فعل الفاعل الى المفعول أو الى غير المفعول لأن العصبة هى التى تنوء بالمفاتيح•

صحيفة البليغ ابشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠هـ :

بشر بن المعتمر متكلم معتزلى كان من رؤوس المعتزلة وبلغائهم بل هو زعيم المعتزلة البغداديين • والمعتزلة كما تعلم عنوا بمسائل البلاغة والبيان عناية فائقة — شأنهم فى ذلك شأن بقية أرباب علم الكلام ، لأن البلاغة كانت متصلة اتصالا مباشرا بما ينهضون به من خطب ومناظرات ومجادلات •

لذلك كان الحرص منهم على بلاغة القول وقوة التأثير عظيما وحرصهم هذا يشمل سلامة المنطق وفصاحة اللفظ وقوة المعنى وجودة السبك وعمق التصوير ومن أشهر ما أثر عنهم ما وعاه كتاب البيان والتبيين لبشر بن المعتمر صاحب صحيفة البليغ ، ففى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٢٦ وما بعدها حتى ص ١٢٩ أثبت الجاحظ هذه الصحيفة من ألفها الى يائها وفيها تجد درسا بلاغيا منظما — جاء فى معرض تعليم الخطابة فقد ذكر الجاحظ : « قال الراوى :

« مر بشر بن المعتمر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة ، فوقف بشر فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد ، أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه وكان أول ذلك الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا وأحسن فى الأسماع وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع • واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة • ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه ، ثم حذر بشر من التوعر وحث على ضرورة التناسب بين الألفاظ والمعانى من جهة والمعانى والمستمعين من جهة ثانية والمعانى والأحوال من جهة ثالثة •

واذا أردت أن تقف على المسمات البلاغية العامة التى عنيت بها هذه الصحيفة وجدتها :

١ ــ أول صحيفة تربوية فى تعليم فن القول أو هى على الأقل من سوابق الصحائف والرسائل التى كتبت فى ذلك •

٢ ــ أنها الرسالة التى ترشد صاحب فن القول الى أن يتجرد لما يقول أو يكتب ــ ولن يتأتى ذلك فى كل وقت وآن ــ ولذلك فمن الكياسة أن يختار الانسان وقت فراغه التام ليبدع فيه ما يريد من قول مسموع أو مكتوب ليجد الفكرة واضحة ويجد التعبير عنها هينا لينا •

٣ ــ أن الرسالة تبين أن البلاغة انما تكون باختيار اللفظ متسقا مع المعنى مراعيا لحال السامع مطابقا لمقتضى الحال ، وأن البلاغة ليست فى التعمق والبعد كما أنها ليست فى الابتذال والقرب بل كل مقام له ما يناسبه ، وأن مخاطبة الخاصة تقتضى التعمق والسمو البلاغى فى اختيار اللفظ وانسجام التركيب وأن مخاطبة العامة تقتضى

اليسير فيما يفهمهم ويجلى المعنى لديهم وأن من البلاغة أن يكون الانسان قادرا على افهام العامة ما فهمه الخاصة .

٤ — أن البليغ هو الذى تواتيه الملكة فتجعل قياد المعانى والأفكار فى يده يصرفها كيف يشاء وأن هذه منزلة تليها منزلة أخرى يحتاج فيها البليغ الى المعاودة والتنقيح والتهذيب وأن الذى لا يتوفر على منزلة من هاتين المنزلتين أولى به أن ينصرف عن فن القول الى مهنة أخرى وعمل آخر .

كتابا البيان والتبيين والحيوان للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ :

أولا : نبذة عن الجاحظ :

هو أبو عثمان عمرو بن محبوب الملقب بالجاحظ والحدقى لجحوظ عينيه وكبر حدقته وقد هيأ الله قلم هذا الرجل وهمته للذود والدفاع عن العربية وأهلها فقد ظهر فى عصره نبت شيطانى يريد أن ينخر بناء الأمة الاسلامية ويقوض أركانها وهو الشعوبية التى أخذ فيها كل صاحب جنس يتعصب لجنسه ولغته ويعيب العرب ولغتهم بما ليس فيهم وهنا ينبرى الجاحظ مدافعا محقا لحق اللغة وأصالتها رادا سهام الأعداء الى نحورهم جاعلا تدميرهم فى تدبيرهم لقد هجم الشعوبيون والمتعصبون على لغة العرب خصوصا بلاغة هذه اللغة فقالوا : « من أحب أن يبلغ فى صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ويتبحر فى اللغة فليقرأ كتاب كاروند ، ومن احتاج الى العقل والأدب والعلم بالمراتب والعبر والمثلات والألفاظ الكريمة والمعانى الشريفة فلينظر الى سير الملوك .

فهذه الفرس ، ورسائلها ، وخطبها ، وألفاظها ، ومعانيها ، وهذه يونان ورسائلها وعللها وحكمها ، وهذه كتبها فى المنطق بها تعرف

السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب .. وهذه كتب الهند فى حكمها وأسرارها ، وسيرها وعللها فمن قرأ هذه الكتب عرف غور تلك الحكم وعرف أين البيان والبلاغة وأين تكامات تلك(١) الصناعة » .

بهذه الروح المتعصبة الحاقدة أخذ المتعصبون والشعوبيون ينخرون سوس حقدهم فى تضاعيف العرب لغتهم وجنسهم وثقافتهم،

لا أبالغ اذا قلت : ان نار الحقد التى أشعلها الشعوبيون هى التى ألهبت حمية الجاحظ وجعلته ينبرى للرد عليهم فيخلف لنا هذه الكتب التى ما فتىء عالم عربى يرجع اليها ليأخذ عنها ويستشهد بما جاء فيها وعلى رأس كتب الجاحظ كتاب البيان وكتاب الحيوان .

ودليلى على أن الرد على الشعوبيين هو الذى ألهب حمية الجاحظ ما جاء فى مقدمة كتاب البيان والتبيين اذ تراه فى هذه المقدمة يدعو الله سبحانه أن يجنبه صفات تحققت عين التحقق فيما كتب الشعوبيون يقول :

« اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ، ونعوذ بك من السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العى والحصر »(٢) .

ومن هذا الدعاء تحس تعريضا بالشعوبيين كما تحس احاطة بالبيان فان الأشياء التى تعوذ منها الجاحظ وسأل الله السلامة منها ضد البيان تماما ونقيضه فلا بيان مع فتنة بالقول أو بالعمل كما لا بيان مع غرور وسوء أدب وغلبة هذر وعى وفهاهة وحصر .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ ص ١١ ، ١٢ .

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦ .

ولقد تضمن كتاب البيان والتبيين كثيرا من المسائل البلاغية تجدها متفرقة فى الكتاب مبسوطة بسطا شاملا مشروحة شرحا وافيا من غير تحديد أو تعريف أو تقييد يهتم الجاحظ بالبلاغة ويحب أن يجعل قوله فيها فصلا يلجم أفواه الشعوبين ويخرصهم فيورد البلاغة فى أعراف أمم مختلفة ثم يورد البلاغة لدى العرب الخلص وهى عندهم تجمع ما قاله أهل الأمم الأجنبية وتزيد عليه .

وأنت اذا تأملت ما نقله الجاحظ عن معنى البلاغة رأيته يسوق أولا أقوال الأجانب وهى معنية بالأقسام والفصل والوصل وغيرها من المعانى الجزئية ثم يتبع ذلك بسلسلة من أقوال العرب وتراها جميعها تنحو النحو العام الذى يهتم باللفظ والمعنى والنظم ومراعاة مقتضى الحال .

وكما أسهب الجاحظ فى بيان معنى البلاغة ونقل كثيرا من الأقوال فيها فانه صنع الصنيع عينه فى البيان وتحدث فيه طويلا عن اللفظ والمعنى والصياغة والتصوير ثم يقول : « والبيان اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضى السامع الى حقيقته .

ويمكن اجمال المسائل البلاغية التى ذكرها الجاحظ فيما يلى :

١ — السجع وقد عقد له الجاحظ بابا جمع فيه كثيرا من النماذج الشعرية والنثرية التى وقع فيها سجع(٣) .

٢ — المجاز والتشبيه وقد تحدث عنهما حديثا مستفيضا فى كتاب الحيوان(٤) ، والمجاز عنده هو استعمال اللفظ فى غيرما وضع له على سبيل التوسع من أهل اللغة ثقة من القائل بفهم السماع .

---

(٣) راجع البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٣٢ وما بعدها .

(٤) مقدمة البيان فى مجازات القرآن لمحمد عبد الغنى حسن ص ٢

٣ ــ البديع ويذكر الدكتور حفنى شرف أن الجاحظ هو أول من دون البديع واستعمله استعمالا نقديا علميا وان لم يخرج به فى هذا الاستعمال عن معنى الجدة والطرافة(٥) •

٤ ــ اشارته الى الاستعارة من ذلك قوله وهو يشرح أرجوزة جاء فى أبياتها :

يا دار قد غيرها بلاها كأنما بقلم محاها

وطفقت سحابة تغشاها تبكى على عراصها عيناها

يقول « طفقت يعنى ظلت • تبكى على عراصها عيناها ، عيناها ها هنا للسحاب ، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشىء باسم غيره اذا قام مقامه(٦) •

٥ ــ الاهتمام بجودة الصياغة واختيار الألفاظ يقول فى كتاب الحيوان جـ٣ ص ١٣١ « والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقروى وانما الشأن فى اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير » •

أكثر فى كتبه من الحديث عن الايجاز والاطناب ، وحسن الابتداء والكناية والالغاز والتعريض ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها • وبهذا يتبين لك أن الجاحظ هو منشىء علم البلاغة لكن بدون تحديد أو تقييد أو تعريف أو اخراج محترزات •

---

(٥) راجع التصوير البيانى للدكتور حفنى محمد شرف ص ٦٣ •

(٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٥٢ وما بعدها •

تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ :

ابن قتيبة هو العالم اللغوى الأديب أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدنيورى المولود سنة ٢١٣هـ والمتوفى سنة ٢٧٦هـ صاحب (أدب الكاتب) و (عيون الأخبار) و (تأويل مشكل القرآن) .

والذى يعنينا التحدث عنه هنا هو كتابه تأويل مشكل القرآن ولعلك تحس من تسمية الكتاب انه ثمرة من ثمار الغيرة الدينية على كتاب الله اذ انبرى هذا الفقيه اللغوى شارحا موضحا رادا مفحما على أولئك المتعصبين الذين أعمتهم الضلالة والحفيظة عن تبصر نور الهدى وضياء اليقين فراحوا يدسون المكائد ويثيرون الشبه الباطلة حول كتاب الله — سبحانه — .

فالكتاب يعنيه بالدرجة الأولى تأويل وتفسير وبيان البلاغة فى القرآن الكريم خصوصا الآيات التى تناولت صورا تشبيهية أو مجازية وأراد الطاعنون أن ينفذوا من خلالها ينفثون سموم صدورهم فى المسلمين .

وعلى طريقة أبى عبيدة فى مجاز القرآن سار ابن قتيبة فى تأويل مشكل القرآن الا أن ابن قتيبة كان أقدر من أبى عبيدة على التحليل ودقة التبويب ووضوح المنهج .

ففى هذا الكتاب تجد المسائل البلاغية أميل الى الاستقلال واضحة المعالم ليست أفكارا منثورة مبثوثة فى ثنايا الكتاب وقد اهتم ابن قتيبة بالمجاز ورد على الذين أنكروا وقوعه فى القرآن الكريم .

ويمكن اجمال فضل ابن قتيبة فيما يلى :

١ — انه جعل لكل مسألة بلاغية بابا مستقلا فهذا باب المجاز وذاك باب الاستعارة وذلك باب التقديم والتأخير وهكذا .

٢ ــ أن بحثه البلاغى كان بحثا مستقصيا مدعوما بالتحليل اللغوى والنحوى الذى كان كثيرا ما يطغى على التحليل البلاغى •

٣ ــ أنه عالج ما عالج من مسائل البلاغة دون تعريف أو تقييد أو اخراج محترزات •

٤ ــ انه لم يغفل مزية المعنى ــ كما فعل الجاحظ ــ فقسم الكلام الى ما حسن لفظه ومعناه وما حسن لفظه دون معناه ، وما حسن معناه دون لفظه وما ساء وقبح فى لفظه ومعناه جميعا ولم يقف عند الأخير •

ــ كتاب الكامل للمبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ :

المبرد هو محمد بن يزيد المبرد له كتاب الكامل نثر فيه كثيرا من المسائل البلاغية وله فيه بحوث نحوية ويغلب على هذا الكتاب الناحية الأدبية •

وقد تحدث فى كتابه عن الاستعارة والالتفات والكناية والايجاز والاطناب والتقديم والتأخير وخروج الاستفهام عن أغراضه وما سمى بعد ذلك بأضرب الخبر ، كما تحدث عن التشبيه حديثا مسهبا وقسمه وأكثر له من الشواهد • وهاك مثالا من معالجة المبرد البلاغية •

قال له الفيلسوف الكندى يوما : أنى أجد فى كلام العرب حشوا يقولون ! عبد الله قائم وان عبد الله قائم وان عبد الله لقائم والمعنى واحد فأجابه قائلا بل المعانى مختلفة فعبد الله قائم اخبار عن قيامه، وان عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وان عبد الله لقائم جواب عن انكار منكر(٧) وبهذه الاجابة يتبين لك أنه هو الذى فتح

---

(٧) دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٢٢١ •

الباب أمام البلاغيين الاصطلاحيين ليقسموا الخبر الى ابتدائى وطلبى وانكارى .

ـ كتاب البديع لابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ :

ابن المعتز هو عبد الله بن المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم ابن هارون الرشيد العباسى الشاعر المبدع خليفة يوم وليلة ولد سنة ٢٤٧هـ وتوفى سنة ٢٩٦هـ .

كتاب البديع لعبد الله بن المعتز أول مؤلف فى البلاغة يتناول البلاغة تناولا مستقلا لا تجتمع فيه مع غيرها من المباحث . ولا تظن أن المراد بكلمة البديع عند ابن المعتز هو البديع المتعارف عليه لدى العلماء المتأخرين وانما هو شامل لهذا العلم وللمعانى والبيان فقد بنى ابن المعتز كتابه على قسمين :

القسم الأول : البديع تناول فيه خمسة أبواب هى الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامى .

والقسم الثانى المحاسن : تناول فيها الالتفات والاعتراض وحسن الرجوع ، وحسن الخروج وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل المراد به الجد ، وحسن التضمين والتعريض والكناية والافراط فى الصنعة وحسن التشبيه ولزوم ما لا يلزم وحسن الابتداء ، والذى دعا ابن المعتز الى تأليف هذا الكتاب أمران :

الأول : بيان أن البديع قديم قدم الأدب العربى وأن النتاج الأدبى شعرا ونثرا فى العصر الجاهلى والاسلامى وما تلاهما اشتمل على كثير من أنواع البديع ولذلك فليس بشار ومسلم بن الوليد وأبو نواس ومن نزع منزعهم هم مخترعى هذا العلم ولكنه كثر فى أشعارهم .

الثانى : اسهامه النافع فيما كانت تموج به حياة عصره من حركة متصارعة بين البيانيين والبديعيين والمناصرين للفظ والمكتفين بالمعنى اذ ان ابن المعتز جمع فى كتابه نماذج من روائع الأمثلة ومنتخب الشواهد يقتبسها من القرآن والحديث وكلام البلغاء وشعر الشعراء جاهليين واسلاميين ثم يعرض للردىء والمردود فيورد أمثلة منه(٨) .

وقد اختط ابن المعتز لنفسه فى هذا الكتاب خطا مستقيما صالحا اذ اعتمد فيه على الاختصار والحيطة من التكثير ، كما أعلن صراحة أنه لا يحجر على الآخرين فى أن يزيدوا أنواع البديع ويذكروا ما لم يذكره .

وقبل أن نحصى فضل ابن المعتز فى كتابه البديع على البلاغة لابد من أن نذكر أن الشعوبية التى ظهرت فى العصر العباسى تولى كبرها قوم ليسوا عربا بينما الشعوبية العصرية تولى الترويج لها فى عصرنا الحديث عرب مستغربون يرجعون بكل فضل الى أوربا ويعزون بكل عيب الى العرب فهذا الدكتور عميد الأدب العربى طه حسين يردد فى مقدمة نقد النثر — من غير تثبت أن كتاب البديع لابن المعتز لم يسلم من الغارة الهاينية وليس له دليل على ذلك الا أن كتاب الخطابة لأرسطو ترامت ترجمته الى العربية مع تأليف هذا الكتاب . وقد انبرى للرد على العميد الدكتور رجل منهم الدكتور ابراهيم سلامة فى كتابه بلاغة أرسطو بين العرب واليونان والمستشرق كراتشكوفسكى ناشر كتاب البديع ، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجه فى كتابه ابن المعتز والدكتور شوقى ضيف فى كتابه البلاغة تطور وتاريخ .

والآن الى فضل ابن المعتز على البحث البلاغى :

---

(٨) راجع نظرات فى البلاغة والاسناد للدكتور عبد الرحمن الكردى ص ٢٠ .

١ ــ هو أول من صنف فى البديع ورسم فنونه وكشف عن أجناسها وحددها بالدلالات البينة والشواهد الناطقة بحيث أصبح اماما لكل من صنفوا فى البديع بعده ونبراسا يهديهم الطريق(٩) .

٢ ــ كان فى بحثه قدوة للباحثين بعده ومعينا ثرارا لهم يغترفون منه ما يروى ظمأهم اذ كان يذكر فى كل نوع من الأنواع التى ذكرها فى كتابه تعريفه هو ثم تعريف الآخرين ويشفع ذلك بالشواهد التى وقع عليها اختياره من الآيات والأحاديث ومآثور الأدب نثره وشعره وربما بدأ بذكر الشواهد الأدبية للمتقدمين ثم المحدثين ليكون مسايرا للغرض الذى أنشأ الكتاب من أجله وهو اثبات أن البديع قديم وأنه ليس من نتاج المحدثين فقط .

٣ ــ فتح ابن المعتز باب التأليف فى البديع لمن جاء بعده فكثرت المؤلفات فى ذلك كثرة فائقة .

٤ ــ يعد كتابه ديوانا لكثير من الألوان الأدبية الراقية يتجه اليه من أضناه صخب الحياة ليطلع على كثير من الفقر النثرية والأبيات الشعرية الجيدة اذ ان الرجل كان حصيفا دقيق الحس صافى الذوق فى اختيار الأمثلة والشواهد .

ــ عيار الشعر لابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ :

ابن طباطبا هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم ابن طباطبا الأصبهانى العلوى ينتهى نسبه الى على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ألف كتابا فى العروض لم يسبق اليه كما ذكر ياقوت وكتاب تهذيب

---

(٩) البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٥ .

الطبع وكتاب المدخل فى معرفة المعمى من الشعر وكتاب عيار الشعر وهو الذى يهمنا فى حديثنا هنا •

وقبل أن نتكلم عن جهد ابن طباطبا كما يجليه لنا كتاب عيار الشعر نقدم مقدمة نراها كاشفة للأثر الطيب لابن طباطبا فى اثراء البحث البلاغى •

نزامن ــ تقريبا ــ ظهور كتاب عيار الشعر مع ظهور كتاب قواعد الشعر لثعلب ونقد الشعر لقدامة • فكان كتاب عيار الشعر أمسها رحما بالبلاغة اذ هو بحث بلاغى فيه نظرات فاحصة ووقفات طويلة أمام النصوص وحديثٌ عن الطبع وبناء القصيدة واشتراك الشعراء فى المعانى والكلام عن الصياغة والألفاظ والمعانى • أما كتاب نقد الشعر فقد انصب على تعريف الشعر تعريفا منطقيا فلسفيا •

وكتاب قواعد الشعر لثعلب كان منصبا على جمع القواعد التى كان اللغويون يحكمون بها على الشعر •

وكتاب عيار الشعر ينقسم الى قسمين مقدمة ومتن وأهم ما فى هذا الكتاب بحث التشبيه حيث يبين أن التشبيهات تقع على ضروب مختلفة •

ــ تشبيه الشىء بالشىء صورة وهيئة كقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

ــ تشبيه الشىء بالشىء لونا وصورة كقول حميد بن ثور :

على أن سحقا من رماد كأنه حصى اثمد بين الصلاء سحيق

وعلى هذا الطريق يسير حتى يصل بضروب التشبيه الى خمس صور أو أكثر •

أثر عيار الشعر :

كان هذا الكتاب مصدرا غنيا قريب المأخذ للدراسات التى تلتـــه واذا رجعت الى كتاب الصناعتين للعسكرى وكتاب الموشح للمرزبانى ومقدمة شرح ديوان الحماسة للمرزوقى وجـــدت التأثر بابن طباطبا واضح القسمات ظاهرا •

ـ كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧هـ :

مؤلف هذا الكتاب قدامة كان مثل أبيه جعفر من كتـــاب الديوان العباسى ببغداد ، وقد كان فى أول أمره نصرانيا فدخل فى الاسلام على يد الخليفة المكتفى واشتهر بين معاصريه بثقافته العميقة فى الفلسفة والمنطق »(١٠) •

وكتاب قدامة هذا سبق لنا أن ذكرنا عنه عند حديثنا عن كتـــاب عيار الشعر لابن طباطبا أنه كتاب غلبت عليه المســـحة المنطقية ونزيد هنا تفصيلا فنذكر أن قدامة جعل كتابه هذا ثلاثة فصول • تحدث فى الأول عن حد الشعر ، وفى الثانى عن النعـــوت والاحاطة بصـــفات الحسن والجودة فى عناصره وأجزائه ، وجاء الثالث متحدثا عن العيوب مرتبا اياها الترتيب الذى سار عليه فى ذكر النعوت •

وبعد فان جهد قدامة جهد غلبت عليه التقسيمات والتعريفات ولم لا ؟ وهو العالم الضليع بالمنطق وحدوده ورسومه وأشكاله •• وان كان لكتابه هذا فضل فهو فضل وضع أساس نظرى تجريدى فى بحث مسائل البلاغة •

---

(١٠) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص ٧٨ •

ـ كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦هـ (١) :

القاضى الجرجانى هو أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى الشافعى كان فقيها أديبا شاعرا كما كان يتولى القضاء للدولة البويهية فى ايران .

وكتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه ليس كما تفهم من عنوانه خاصا بالمتنبى والوساطة بينه وبين خصومه فقط وانما الكتاب كتاب فى أصول الأدب وتحليل للشعر قديمه ومعاصره(٢) ، ثم يعد ذلك هو كتاب وساطة بين المتنبى وخصومه وليس ببدع أن يكون الكتاب كذلك لأن صاحبه قاض لا يحكم الا عن بينة و لايأخذ أحدا بالشبهة والذى دعاه الى تأليف هذا الكتاب أسباب لكن السبب المباشر أنه وجد أهل الأدب فى أبى الطيب المتنبى فئتين : « من مطنب فى تقريظه ، منقطع اليه بجملته ، منحط فى هواه بلسانه وقلبه ، ومن عائب يروم ازالته عن رتبته ، فلم يسلم فضله ويحاول حطه عن منزلة بوأه اياها أدبه فهو يجتهد فى اخفاء فضائله واظهار معايبه وتتبع سقطاته واذاعة غفلاته .

فأراد أن يحكم حكما نزيها صادرا عن قاض نزيه فبدأ بالحديث عن أغاليط الشعراء منذ القديم حتى زمانه وبين أن الشعر يتأثر بطبع

---

(١) جاء فى كتاب البلاغة تطور وتاريخ أن وفاة القاضى الجرجانى كانت سنة ٣٩٢هـ ويقول الدكتور شوقى « جعل وفاته ابن خلكان وابن العماد فى شذرات الذهب ٣/٥٦ فى سنة ٣٦٦هـ وهو خطأ واضح . البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٢ .

(٢) نقصد بالمعاصر ما كان من نتاج شعرى فى عصر القاضى الجرجانى وليس فى عصرنا نحن وهذا معلوم بداهة ولكن نبهت عليه للاحتياط فقط

الشاعر من ناحية وبالتحضر والبداوة من ناحية أخرى كما تحدث عن الحشو فى الشعر وعن البديع فى شعر العرب • ثم بعد ذلك بدأ فى حديث الوساطة فوازن بين المتنبى وبين غيره من الشعراء كابن الرومى، متحدثا عن خصائص الشعر عند المتنبى ذاكرا ما يحسب له من فضل محصيا ما عساه يكون من سقطات • كما تحدث عن البديع وعن الاستعارة وعن الفرق بين الاستعارة والتشبيه المحذوف الوجه واداة كما تحدث عن الاسراف فى الاستعارة ، ومن أحسن ما اشتمل عليه كتابه هذا فصل مستفيض فى الحديث عن السرقات الشعريةويعد هذا الفصل بابا لا ينهض به الا الناقد البصير والعالم المبرز ، وليس كل من تعرض له أدركه ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله »(١) •

ـ ويمكن ايجاز فضل القاضى الجرجانى فى البلاغة فيما يلى :

١ ـ أن حديثه عن البلاغة كان حديثا تطبيقيا ، ولم يكن تجريديا نظريا •

٢ ـ أنه وضع أساسا فى النقد يقوم على أنه لا ينبغى الحكم على الشاعر بما أساء فيه بل يحكم عليه بما حسنه وجوده ، اذ لكل شاعر أساءاته وأغلاطه •

٣ ـ أنه يرى أن الأسلوب الجيد هو الذى يرتفع عن الساقط السوقى ويهبط عن البدوى الوحشى كما قال : ان لكل موضوع ما يناسبه ويشاكله من اللفظ •

٤ ـ انه يرى أن البديع(١) اذا جاء بدون تكلف وتصنع فهو مزة للشاعر سواء أكثر منه أو أقل •

---

(٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٨٣ •

(٤) لاحظ أن القاضى الجرجانى لا يقصر البديع على ما حصره فيه المتأخرون بل يعد منه الاستعارة والتشبيه فهو مرادف للبلاغة •

٥ ــ أنه كان عظيم الأثر فيمن جاء بعده ويكفيه فى ذلك أن شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجانى تأثر به تأثرا واضحا .

الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى المتوفى سنة ٣٧٠هـ :

الآمدى هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى البصرى، وقد ألف كتابه الموازنة بين أبى تمام والبحترى نتيجة احتدام المعركة بين البديعيين والبيانيين ، وقد ذكر فى مقدمة كتابه أن رواة الأشعار شغلوا أنفسهم بالمفاضلة بين الشاعرين لغزارة شعريهما وكثرة جيدهما وبدائعهما ولم يتفقوا على أيهما أشعر ، كما لم يتفقوا على أحد ممن وقع التفضيل بينهم من شعراء الجاهلية والاسلام المتأخرين ثم يذكر فى مقدمته أنه لا يحب أن يطلق القول بأيهما أشعر لتباين الناس فى العلم واختلاف مذاهبهم فى الشعر ثم يقول : « فان كنت ــ أدام الله سلامتك ــ ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحترى أشعر عندك ضرورة، وان كنت تميل الى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوى على غير ذلك فأبو تمام أشعر عندك لا محالة فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ولكنى أوازن بين قصيدتين من شعرهما فأقول أيهما أشعر فى تلك القصيدة ثم احكم أنت(١)» وعلى الرغم من ذلك فقد كان الآمدى منحازا الى أبى تمام ــ وما علينا من ذلك ــ وانما الذى يهمنا أن نذكر أن الآمدى كان :

١ ــ معينا ثرارا فى تغذية وامداد الفكر البلاغى والنقدى .

٢ ــ انه كشف عن وجوه حسن الاستعارة والطباق والتجنيس وغيرها كما كشف عن وجوه ومظاهر فسادها يعتمد فى ذلك على المنهج التطبيقى كما سبق أن قررنا .

---

(٥) راجع الموازنة ص ١٠ وما بعدها .

ـ النكت فى اعجاز القرآن(٢) للرمانى المتوفى سنة ٣٨٦هـ :

الرمانى هو علي بن عيسى الرمانى المعتزلى صاحب المؤلفات الكثيرة فى التفسير واللغة والنحو وعلم الكلام .

تحدث فى بداية هذا الكتاب الصغير حجما الكبير فائدة عن وجوه اعجاز القرآن الكريم فقال انها تظهر من سبع جهات هى :

١ ـ ترك المعارضة مع توفر الدواعى ، وشدة الحاجة .

٢ ـ التحدى للكافة .

٣ ـ الصرفة (أى صرف الهمم عن معارضة القرآن) .

٤ ـ البلاغة .

٥ ـ الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة .

٦ ـ نقض العادة .

٧ ـ قياسه بكل معجزة .

وعن البلاغة يقول الرمانى « انها ايصال المعنى الى القلب فى أحسن صورة من اللفظ ويجعلها ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا فالعليا بلاغة القرآن والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم فى البلاغة ثم قسم البلاغة الى عشرة أقسام فسرها بابا بابا جعل أولها الايجاز وآخرها حسن البيان .

وكان لكتاب النكت فضل فيمن جاء بعد الرمانى فقد فحصوه ودرسوه وكانوا ما بين سنى يفند آراء الرمانى ومعتزلى يقرظه ويمدحه .

---

(٦) راجع ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن الكريم ط دار المعارف (١١) وما بعدها .

ـ كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ :

أبو هلال هو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ، والمقصود بالصناعتين صناعة الشعر وصناعة النثر وفى رأيه أن صناعة هذين الفنين لا تقوم الا بتعلم علم البلاغة ولذلك فهو يجعل فاتحة كتابه علم البلاغة ويراها أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله ـ جل ثناؤه ـ لأنها هى التى يعرف بها الاعجاز ، كما يذكر أن الفقيه المؤتم به والقارىء المهتدى بهديه والمتكلم المشار اليه فى حسن مناظرته وتمام آلته فى مجادلته وشدة شكيمته فى حجاجة وكذلك العربى الصليب والقرشى الصريح يقبح بهم ألا يعرفوا الاعجاز الا من الجهة التى يعرفه منها الزنجى والنبطى وأن يستدلوا عليه بما استدل به الجاهل الغبى ولذلك ينبغى أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم(١) .

ولعلك تلحظ أن الحديث منصب على البلاغة وأهميتها من أول لحظة وأن الرجل بلاغى عالم رتب كتابه ترتيب العالم الأديب يبوب ويقسم ويحدد ويفصل من خلال جولة حرة بين ظلال الأدب وبساتينه. وقد كان أبو هلال يبغى من وراء كتابه هذا تحقيق هدفين :

الأول : تسليح المتلقين بفنون البلاغة والابانة عن جيد شواهدها من رديئها ليكون ذلك معوانا على فهم كتاب الله وادراك سر اعجازه.

الثانى : سد العجز الذى لاحظه فى ميدان الدراسة الأدبية البلاغية من حيث قلة عدد الكتب المصنفة وتشتت معلومات البلاغة وأبوابها فى القليل الذى صنف . وعلى الرغم من أن العسكرى بوب وعرف واستقصى فمازالت البلاغة غير مقسمة عنده الى علم المعانى

---

(٧) راجع الصناعتين ص ٢ وما بعدها .

وعلم البيان وعلم البديع وأن البـديع الذى ذكره يشمل الاسـتعارة والمجاز والكناية والتعريض •

ـ كتاب اعجاز القرآن للباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ :

الباقلانى هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر القاسم كان كما شهر عنه ـ شيخ السنة ولسان الأمة متكلما سـنيا أشعريا •

يذكر الباقلانى فى فاتحة كتابه أن سائلا سأله أن يذكر جملة من القول جامعة فى اعجاز القرآن تسقط الشبهات ، وتزيل الشكوك التى تعرض للجهال فأجابه الى ذلك وكانت جملة القول الجامعة هذه كتابا يقع فى نحو أربعمائة واثنتين وستين صفحة(١) ••

والكتاب ليس فى البلاغة من ألفه الى يائه بل هو فى اعجـاز القرآن ولذلك اشتمل على قضايا كلامية ، كما اشتمل على كثـير من القضايا البلاغية تحدث فيه عن ألوان بلاغية متعددة فحدد معانيها وأكثر من الاستشهاد لها وحلل هذه الشواهد تحليلا ينم عن قريحة صـافية وفكر ثاقب ونفس صافية تحدث عن الاسـتعارة والتشبيه والغـلو والافراط فى الصفة والمماثلة والمطـابقة والتجنيس والمقابلة والموازنة والمساواة وغيرها •

وسمى الجميع بديعا وبذلك يتبين لك أن البلاغة مازالت غير مقسمة الى معان وبيان وبديع •

على أن أهم ما يلفت النظر فى هـذا الكتاب هو أن الباقلانى أراد أن يدلل على اعجاز القرآن بما يمكن أن نسميه الدليل العملى فعرض

---

(٨) راجع مقدمة الكتاب ص ٤ ، ٥ ، ٧ •

لقصيدتين بالتحليل الدقيق احداهما لأحد مشاهير الجاهليين هو امرؤ القيس والثانية لأحد مشاهير المحدثين هو البحترى وأثبت أن فى كل قصيدة منهما — على الرغم من كونهما لشاعرين مبرزين — مواطن خلل وتقصير وتشوش نظم كما أن فى كل منهما تعسفا وتكلفا واجتماع الكلام الرفيع مع الكلام الوضيع واقتران اللفظ السوقى باللفظ الملوكى •

وواضح أن هدفه هو اثبات أن كلام البشر يتفاوت قوة وضعفا بحسب حالات الانسان فهو من الأغيار وكذلك صفاته •

أما القرآن فهو محفل الدرجة السميا من البلاغة لا يمكن لأى باحث مهما كان أن يقع على أى اختلاف أو تفاوت — تعالى كلام الله عن ذلك علوا كبيرا •

وما من شك فى أن جهد الباقلانى هذا كان جهدا مشكورا أثر تأثيرا طيبا فيمن جاء بعده خصوصا الباحثين فى اعجاز القرآن الكريم •

— كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦هـ :

ابن سنان هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى •

تحس من عنوان الكتاب أن فصاحة العربية حقيقة مؤكدة وأن البحث انما هو عن سر هذه الفصاحة وضبطها وابن سنان الخفاجى تياه باللغة العربية وان شئت فقل متعصب لها ذلك أنه لاحظ أن كلام ينقل الى لغة العرب يجىء الثانى أخصر من الأول مع سلامة المعانى وبقائها على حالها عكس ما يلاحظ فى نقل العربية الى غيرها وقد قال ابن داود المطران وهو رجل عارف باللغتين العربية والسريانية انه

اذا نقل الألفاظ الحسنة الى السريانية قبحت وخست ، واذا نقل الكلام المختار من السريانية الى العربية ازداد طلاوة وحسنا.وينطلق ابن سنان فى كتابه فيبين مفهوم الفصاحة والبلاغة ويذكر أن الفصاحة ترجع الى اللفظ والبلاغة ترجع الى اللفظ والمعنى وعلى ذلك فكل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغا ، وعلى الرغم من أنه كان يعتنق الرأى القائل بأن الاعجاز بالصرفة(١) فقد رأى أن معرفة علم الفصاحة ضرورة لمعرفة بلاغة القرآن الكريم .

وكتاب سر الفصاحة لابن سنان تبدو عليه مسحة من الاسلوب العلمى الذى يميل الى التحديد والتعريف مع الاهتمام بالنماذج والتحليل .

ـ كتابا دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لشيخ البلاغة عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ :

هو الامام أبو بكر عبد الرحمن الجرجانى الأديب الناقد النحوى الفقيه الشافعى المتكلم الأشعرى،وأنت الآن أمام رجل يعتمد الاسلوب التحليلى وسيلة الى الاقناع .

أمام رجل يرى أن البلاغة والبراعة والفصاحة والبيان بمعنى واحد وأنها لا تعلق لها باللفظ بل تعلقها الحقيقى بالنظم .

أمام رجل يرى أن النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، والكلام ثلاث اسم وفعل وحرف ، والتعليق فيما بينها طرق معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام :

---

(٩) راجع كتاب سر الفصاحة ص ٩٢ .

تعلق اسم باسم ، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما ..

فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبرا عنه أو حالا منه أو تابعا له .

وأما تعلق الاسم بالفعل فبأن يكون فاعلا له أو مفعولا ... أو يكون منزلا من الفعل منزلة المفعول وذلك فى خبر كان وأخواتها والحال والتمييز .

وأما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أضرب :

أحدها أن يتوسط بين الفعل والاسم فيكون ذلك فى حروف الجر وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى مع وكذلك حكم الا فى الاستثناء .

والضرب الثانى العطف .. والضرب الثالث تعلق بمجموع الجملة كتعلق حرف النفى والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه ... ومختصر الأمر ألا يكون كلام من جزء واحد وأنه لابد من مسند ومسند اليه .

فالنظم هو أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها(١) .

وخلاصة هذا الكلام أن تغيير وضع الكلمة فى الجملة يكسبها معانى متجددة مختلفة فليس (زيد منطلق) مساويا لقولنا (زيد ينطلق) أو لقولنا ينطلق زيد أو منطلق زيد أو زيد المنطلق أو المنطلق زيد أو زيد هو المنطلق أو زيد هو منطلق . بل لكل مزية ليست فى الآخر ومناسبة مختلفة عن مناسبة الآخر .

---

(١٠) راجع دلائل الاعجاز ص ٢ وما بعدها وكذلك ص ٦٣ وما بعدها

والحديث فى ذلك يطول وله موضع آخر غير ما نحن فيه الان والذى ينبغى علينا أن نثبته هو أن عبد القاهر الجرجانى كان له حس مرهف وبصيرة نافذة استطاع بهما على الرغم من محاولته وضع القوانين لنظريتى المعانى والبيان أن يجعل منهما بنيتين حيتين،تخلوان خلوا تاما من جفاف النظريات وقواعد العلوم ، بل لكأنهما روضان مونقان يرفان بالنضرة والعطر والضياء •• وواضح أنه لم يحاول وضع نظرية فى علم البديع وان كان قد فصل القول فى أسرار البلاغةمن الجناس والسجع وحسن التعليل وأشار غير مرة الى الطباق(١) •

وقد كان أثر عبد القاهر واضحا فيمن جاء بعده وخصوصا الزمخشرى فقد أخذ يطبق نظريتى عبد القاهر فى البيان والمعانى على تفسيره للقرآن الكريم ولعل الزمخشرى ذيل لهما(٢) وان كنا نجد بينها شيئا من التداخل يلقانا بين الحين والاخر •

ـ كتاب نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز للفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ :

الفخر الرازى هو فخر الدين محمد بن عمر الرازى له مصنفات كثيرة تتناولتفسير القرآن الكريم والفقه وعلم الكلام والطب والكيمياء وله بالفارسية رسالة تسمى الاختيارات العلائية •

وبوصولنا الى الفخر الرازى نكون قد طوينا من البحث البلاغى صفحة الأدباء الذواقين المسترسلين ودخلنا فى طور جديد هو طور التحديد والتعريف والتبويب ومنطقة البلاغة •

---

(١١) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص ٢١٨ •
(١٢) المصدر السابق ص ٢٢٢ •

وقد وصف الفخر الرازى فى كتابه البلاغى نهاية الايجاز — الذى جعله تلخيصا لكتابى عبد القاهر الجرجانى — وصف علماء البيان قبل الامام بأنهم كانوا مقصرين فى ضبط معاقده وفصوله الى أن وفق الله الامام عبد القاهر فاستخرج أصول هذا العلم وقوانينه ورتب حججه وبراهينه وقد لاحظ على الامام أنه أهمل رعاية ترتيب الأصول والأبواب وأطنب فى الكلام كل الاطنـــاب ، لذلك فقد التقط هو من الكتابين — دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة — معاقد فوائدهما وراعى الترتيب مع التهذيب ، والتحرير مع التقرير ، وكتاب نهاية الايجـــاز مبنى على مقدمة وجملتين •

ففى المقدمة يتناول الرازى اعجاز القرآن من ناحية فصاحته وشرف علم البيان •

وفى الجملة الأولى يتحدث عن المفردات فيبحث الدلالات والتجنيس والاسناد والتشبيه والاستعارة وغير ذلك •

وفى الجملة الثانية يتحدث عن النظم فيورد حديثا عن المطـــابقة والمقابلة والالتفات ومراعاة النظير والتقديم والتأخير والفصل والوصل وغير ذلك •

وهو فى كل أحاديثه فى هذا الكتـــاب معرف مخرج للمحتـــرزات مبوب مقسم قليل التمثيل والاستشهاد تغـــلب عليه المسحة العقليـــة وتكاد تغيب عن بحوثه — فى هذا الكتاب — الروح الأدبية •

فهو همزة الوصل بين بلاغة عبد القاهر والسكاكى •